

الحضارة العربية في عالمنا المعاصر دلالة في إطار مستقبل الحوار العربي الأوروبي

الدكتور عبدالقادر زبارية

I حول الخلفية التاريخية

١ - الحضارة العربية

مكاتها بين الحضارات

يذهب الشاعر الانجليزي روديار كبلنج الى أن « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا »، ولعل مثل هذا القول يقبل فقط حينما يتعلق الامر بمخاطر شخصية ذات طابع فردي بحت، كما أنه قد يكون له بعض الاقتراب من الواقع عندما يتحدد مدلوله باتجاه ثقافة معينة تكون لها هويتها الخاصة اذا قورنت بثقافة أو ثقافات أخرى. ولكن حينما يتعلق الامر بالمعنى الحضاري لكلمة الشرق وكلمة الغرب، فان هناك تلافحات حضارية مستمرة وتبادلات ثقافية قائمة منذ القديم، ومن هنا فان الرأي المخالف للواقع والذي يعلن عنه كبلنج بهذه الصورة تكون قد أملت ظروفه الخاصة المتأتية أساساً من العصر الذهبي لامتداد الامبراطورية البريطانية على أرجاء واسعة من البلاد العربية والآسيوية والافريقية، وهي المناطق التي تشملها بشكل عام كلمة الشرق في معناها الحضاري على الخصوص^(١).

لقد ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية في منطقة الشرق الاوسط حينما تهيأت الظروف أمام العرب كي يؤدوا دوراً بارزاً في النشاط الحضاري الذي تتداول البروز فيه بين كل حقبة وأخرى أمة من أمم الارض. فقبل الفترة المتعارف عليها الآن بفترة العصر الوسيط، كان الإغريق والرومان بعدهم قد أمسكوا لفترة زمنية هامة بزمام التجلي في النبوغ الحضاري لدى بني الانسان. وقبل الإغريق والرومان كانت هناك فترات طويلة للتداول في ميدان هذا النشاط الحضاري بين أمم الشرقين الادنى والأقصى. ولكننا اذا كنا نعرف القليل أو الكثير عن انجازات وعطاء كل أمة كان لها في الميدان الحضاري العالمي دور بارز وهام، فاننا لا زلنا نجعل اسم وجنسية من تجسّمت على أيديهم اللبنة الاساسية الصلبة الاولى لبداية التحضر البشري فوق الارض، وخاصة اكتشاف النار ومعرفة حقيقة ونتائج زراعة البذور، ولا نعرف عنهم كفرد أو كمجموعة سوى أنهم من بني الانسان، أما التوصل الى استعمال الكتابة فقد جاء متأخراً ولكنه هو وحده الذي مكّن الاجيال من تدوين الإنجازات والمعارف. إن الحضارة الإنسانية هي مجهود عالمي مشترك وكل أمة تتهيا لها الظروف المناسبة تقوم بأداء عمل هام فيه فاذا نحن، شَبَّهنا بالحاظ الصلب المتين الذي يتداول

عليه دون انقطاع أبرع البنائين ولا يتركه أحد لمن بعده حتى يكون قد تعب واستنفد كل ما يتوفر عليه من جهد وبراعة، نكون غير بعيدين عن الدقة، واذا كان العالم قد عاش فترة ازدهار الادوار الحضارية للامم الشرقية وبلاد اليونان في الماضي، فانه يعيش الآن فترة ازدهار التحضر الاوربي^(٢).

ان فترة ازدهار الحضارة العربية قد سبقت مباشرة فترة ازدهار الحضارة الاوربية الحديثة، وبما أن الحضارات تأخذ عن بعضها بقدر ما تتقارب في الزمن، فقد كان لعملية الإحراز على قصب السبق في ميدان النشاط الحضاري العالمي بين العرب والاوربيين عند نهاية العصر الوسيط تفاعل أو تماس واضح أدى في النهاية الى استلام أوربا للمشعل من العرب والسير به الى الأمام وبخطوات جبارة. إن الدور البارز لما أمجرت الحضارة الاوربية في ميدان اكتشاف الطاقة المتأتية عن البخار يعتبر تحسماً هرمياً للتطورات السابقة في المسيرة الحضارية الطويلة للإنسان وقد حاول العرب قبل ذلك الطيران، كما جرت لديهم محاولات أخرى لأختراق المحيط الاطلسي والوصول الى ما وراءه، كما سعوا مجدداً الى تحويل المعادن، ولكنهم توقفوا دون استخراج الطاقة منها واستخدامها. وهو ما أبدع فيه الاوربيون قبل غيرهم، وبذلك أثبتوا قدرة فائقة في عملية (التحدي الحضاري) الذي جعلهم رواداً أمام الحضارة التي سبقتهم مباشرة^(٣).

ان لكل حضارة طابعها المميز، ومن ميزات الحضارة العربية أنها لا تزال غنية جدا حتى الآن، اما في ميدان العلوم الدقيقة فقد توقفت عند البداية في محاولة تحويل المهارات العلمية بشكل واسع الى تكنولوجيا تطبيقية، وهو ما جعل (عملية التحدي) الحضاري حقيقة واقعة انتقلت بواسطتها عجلة القيادة الى الاوربيين. ان نظرية (التحدي) مبنية على أساس أن التطور الحضاري الانساني هو ملك للانسانية جمعاء وكل أمة تؤدي فيه دوراً بارزاً حينما تحيط بها الظروف المؤاتية، ثم يحدث أن تفتقر نشاطات تلك الامة نتيجة لظروف غير مؤاتية تلّم بها، وتتهيا في الوقت ذاته لامة أخرى أسباب ودواع مناسبة تدفعها الى الاتيان بالجديد بناء على النقطة أو النقط التي تكون قد توقفت عندها انجازات غيرها، وبهذه الصورة، انتقلت عملية الإبداع الحضاري الى أوروبا بعد أن كانت بيد العرب، كما أنه يمثل هذه الصورة أيضاً كانت قد انتقلت الى العرب عملية البروز الحضاري بعد أن كانت لدى أمم أخرى سبقتهم^(٤). ان مسألة التماس

الجغرافي والزمني بين الحضارتين العربية والاوربية في أواخر العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة وارد بشكل ملموس، ويبقى التساؤل فقط لو لم يعرف الاوربيون منجزات الحضارة العربية في الميدان العلمي وكذلك جزءا كبيرا من معارف العصر الهلنستي عن طريق العرب، هل كان من الممكن لأوربا الناهضة أن تقوم بثورتها الصناعية بالسرعة الكبيرة التي تمت بها تلك الثورة العظيمة الاثر والنتائج في تاريخ الانسان؟

٢ - التفتح في الحضارة العربية:

أصالة التفتح وقصور الانسان

ان التفتح في الحضارة العربية الاسلامية هو أحد الجوانب البارزة فيها دون شك ولذلك كانت مسألة العقلانية المتمثلة في الاتصال والاحتكاك بالحضارات الاخرى تمثل منطلقا شديدا للوضوح لدى فلاسفة العرب والمسلمين الذين أخذت قضية التوفيق بين الدين والعقل جانبا كبيرا من اهتماماتهم. ففي فترة ازدهار الحضارة الاسلامية خلال ما يعرف لدى الاوربيين بفترة العصر الوسيط لم تكن مسألة البحث عن الهوية قضية قائمة أبدا لديهم وقامت بدلها موضوعات التلاؤم والتكامل المطلق بين الدين والعقل. وقد أجمع رأي الفلاسفة المسلمين على التكامل بين معطيات العقل وتعاليم العقيدة الدينية، ويسمى لديهم البارزون من مفكري الاغريق وخاصة أفلاطون وأرسطو، وهما وثنيان، بـ(المعلمين الاوائل)، وهذا لأن فلاسفة الاغريق قد سبقوا إلى الخوض والبحث والعناية بمسائل وإرشادات العقل، كما سمي فلاسفة الاغريق لدى الكندي وابن سينا وابن رشد والفارابي، وهم من ألمع من اشتغل بالفلسفة لدى المسلمين بـ(الحكماء) أيضاً، وكانت كلمة الحكمة تعني تحكيم العقل واستعماله للوصول الى الصواب. وقد أطلق البيروني هذا المصطلح بهذا المعنى نفسه على إنجازات علماء الهند في الرياضيات والفلك وعلوم الدنيا أيضاً. أما ابن طفيل فقد جسّم في روايته الفلسفية (حي بن يقظان) معاني التأقلم الانساني مع الطبيعة والهادف الى معرفة أسبابها، وهذه هي قضية التجربة والملاحظة الحسية التي ذهب الجاحظ في شأنها الى وصف ذلك الاعرابي الذي أقر بوجود الحيّة ذات الرؤوس السبعة مع أنه لم يشاهدها بأنه (أكذب البشرية) على الاطلاق، وعبارة (البشرية) هنا ذات دلالة خاصة لدى الجاحظ في اعتبار قضية المعرفة قدراً مشتركاً للبشرية جمعاء ولا يمكن أن تكون قاصرة على العرب والمسلمين وحدهم^(١).

ان النصوص الاساسية أيضاً لها أثرها القوي في التأكيد على التفتح والاتصال، فمن الاحاديث المتداولة جداً عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله: (اطلبوا العلم ولو بالصين)، وكانت أول آية تلقاها محمد عن جبريل هي (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم)، ونريد أن نلاحظ هنا النص على (الانسان) الذي كانت عالمية الاسلام تعنيه دون الاقتصار على المسلمين وحدهم، فهؤلاء حينما يؤمنون بالاسلام ويتبعونه، يكونون معنيين بتعاليم دينهم كما أن غيرهم معنيون في الوقت ذاته بتعاليم الدين الذين يكونون قد اختاروه لأنفسهم، والقاعدة في هذا الجانب الديني الصّرف هي (لكم دينكم ولي دين)، أما في قضايا

المعرفة الأخرى فانها القدر المشترك بين كل الانسان، والاشارة الى هذا صريحة في أنه علم الانسان ما لم يعلم ولم يقل انه علم المسلمين وحدهم، كما هو الشأن في أمور الدين.

لقد ارتبط ازدهار الحضارة الاسلامية في جميع أدوارها بفترات التفتح والاتصال وذلك شأن الحضارات الاصلية جميعها- أيضاً، ولذا يذهب المؤرخون دائماً الى الاشادة بفترة ازدهار الترجمة في أيام الخليفة المأمون العباسي، وجودها دون استمرار عملية الاخذ والعطاء حينما حكم عاصمة الدولة الاسلامية طبقة من العسكريين الأجانب في العصور العباسية المتأخرة على الخصوص، إلا أن المالك التي قامت في الاطراف البعيدة مثل السامانيين والغزنويين، كانت ظروفها متفتحة على الاقوام والشعوب المجاورة أكثر، فاستمر فيها ازدهار الحضاري. ويسجل المؤرخون أيضاً لفترة العصر الأموي في الشام دوراً أساسياً في ازدهار حضارة عربية أصيلة وهنا في الوقت الذي كان فيه الأمويون ببلاد الشام في تفتح واحتكاك مباشر بأقوام سبق لها الاخذ بنصيب هام في ميدان الحضارة الهلينية على الخصوص، فساكنوها وتبادلوا معها^(٢).

٣ - النهضة وعصر الاستعمار:

قضية الحتمية والتحدي

لقد بدأت فترة النهضة في العالم العربي مع مجيء الاستعمار، وليس ذلك لان فترة الاستعمار الاوربي في البلاد العربية ارتبطت بإنجازات حضارية وعلمية أدت الى قيام النهضة، ولكن لان المسلمين والعرب انتهوا فجأة فوجدوا في تنظيماتهم الادارية والدفاعية تأخراً عجبياً، فقد كانوا يعتقدون أن الخلافة موجودة أو أن الادارة في كل بلد قادرة على الدفاع عنهم، ثم ثبت العكس وبسرعة لم يكونوا يتصورونها، فراحوا يبحثون عن الحلول. واذا تجاوزنا حديث بعض الكتاب عن مجي نابلليون بونايرت الى مصر، نجد أن كتاب (وصف مصر) الذي ألفته مجموعة من خيرة العلماء الفرنسيين في تلك الفترة حمله الفرنسيون معهم حين انتهاء إقامتهم في مصر، ولم ينشر في فرنسا ذاتها لا بعد حوالي الأربعين عاماً. وحين وصل الفرنسيون الى مدينة ورقلة في منتصف القرن التاسع عشر، وكانت هذه المدينة في علاقات تجارية كبيرة نسبياً مع تمبكتو حيث كانت تتجمع وتجهز منها القوافل الى بلاد السودان الغربي. ثارت ثائرة شيخ تمبكتو واعتبر أن من واجبه النهوض لمساعدة المسلمين في ورقلة التي وصلها المحتلون الاوربيون بعد أن تغلبوا على كل بلدان ومناطق المسلمين من ورائها، فعزم على استنفاك كل رجاله وأنصاره في منطقة تمبكتو والسوادين، الا أن الرحالة الالماني بارث ثناء عن ذلك مظهراً له مدى قوة الفرنسيين، أمّا امير مالي، فقد أرسل يطلب النجدة حين هجوم الفرنسيين على تمبكتو سنة ١٨٩٧ من سلطان مراکش، المولى عبد الرحمن، فكان جواب هذا الاخير عدم القدرة على أي شيء لان أوضاع المسلمين لديه وفي كل أصقاع العالم الإسلامي الأخرى، ليست على ما يرام. ونلاحظ أنه لو حصل هذا في القرن الرابع عشر مثلاً أو قبله لكان رد الفعل يختلف عن هذا بكل تأكيد^(١) هذا في المغرب. أما في الشرق فإن مجيء نابلليون الى مصر كان في نطاق التنافس البريطاني الفرنسي، وقد حارب نابلليون المالك في مصر بأسلحة متطورة جداً اذا قورنت بما كان في أيدي المالك^(٢).

لقد كان أول من انتبه من الحكام المسلمين ، على ما يبدو الى ما كان يجب عمله أمام اختلال ذلك التوازن الحضاري الذي كان لدى المسلمين، هو محمد علي، الذي عمل ما أمكنه لاقامة دولة حديثة يمثل ما أصبح لدى الاوربيين، ولكن الظروف أفشلت جهوده أخيرا، ويقال إنه نصح أيضا داي الجزائر بأن لا يتعنّت في قضية تسديد الديون التي تراكمت له على فرنسا منذ حوادث عدم الاستقرار الطويلة أيام الثورة الفرنسية لان التوازن قد اختل بين أوروبا الناهضة والعالم العربي ولكن الداوي لم يعمل بنصيبه فكانت النتيجة احتلال الفرنسيين للجزائر بالقوة كما هو معروف. لقد بقيت اليمن خارج نطاق الاحتلال الاوربي فكان عليها أن تمر بمخاض كبير في العشرينيات الاخيرة كي تبدأ فيها عملية البناء وفق أسلوب جديد. اما الدولة العثمانية (دولة الخلافة) فقد ظهر كثير من المصلحين فيها وعرفوا الداء ولكنهم لم يستطيعوا الوصول الى أهدافهم لان مصالح أوروبا القوية في إمبراطوريتهم أصبحت من أكبر العوائق أمامهم على ما يبدو..

ان الفترة الاستعمارية الاوربية في البلدان المحضرة بحضارة الاسلام، وفي الجزائر بالخصوص يسميها الزعيم الجزائري فرحات عباس بـ(ليالي الاستعمار)⁽¹⁾ وهو يشير بذلك الى انها كانت حالكة السواد، لان المستعمرين كانوا يحترقون حضارة الانسان (الاهلي) ويذلون كرامته، وهذا الانطباع عن تصرف المستعمرين الاوربيين في المستعمرات يكاد يكون عاما في نظر مفكري العالم الثالث، الذي سبق الاوربيين في التحضر والمساهمة الحضارية وخاصة الجانب المتعلق بالروحيات والفلسفة، والواقع ان الطبقات التي مارست السيادة الاستعمارية من الاوربيين كثيرا ما كانت تنظر لثقافات البلدان المستعمرة نظرة استعلاء شديد، ولم تنظر لها الا في النادر بمنظور انساني وحضاري بالشكل الذي تتبناه في يومنا المنظمات الدولية والهيئات الرسمية في كل البلدان ومع ذلك فقد كان للفترة الاستعمارية ايجابيتها من حيث ان عملية التحدي التي ارتبطت بها أدت الى نوع من التصادم الحضاري الذي مكن سكان المستعمرات بشكل حتمي أن يستهدفوا التطور ويخرجوا من العزلة والجمود⁽²⁾.

٤ - المسيرة الطويلة للاحتكاك الحضاري بين العرب والاوربيين:

نظرة عامة في بعض الوقائع والنتائج

يذهب العلامة ابن خلدون الى القول بان الجانب الضعيف يتوفر دائما على الخصائص الطبيعية لتقليد الأقوى منه. وعلى عكس ما كان في الماضي فان اقتناعا عاما في العالم العربي والاسلامي الآن بأن الغرب المتطور هو الماسك بزمام التطور الحضاري الاكثر تقدما في هذا العصر، وبالتالي فان الطموح الى الأخذ بتقليده قد تجاوز مجموعات النخبة الى الطبقة الوسطى والطبقات الشعبية، لدى كل البلاد الآخذة والمتأصلة بحضارة العرب والمسلمين عموما. وأمام الضعف الحاصل في الاخذ وبالسرعة المطلوبة بزمام التكنولوجيا المبنية على أسس علمية صحيحة، تجاوز الامر في خصوص تقليد الغرب الى المظاهر والتصرفات الاجتماعية الثانوية حتى بدا في كثير من الاحيان أن تقليد الغرب في القشور قد فاق تقليد العرب والمسلمين له في المعطيات الأكثر نفعاً وصلابة. وأمام الحرص على اقتناء الاجدى من الغرب فان

هناك بعض الضعف الحاصل في سرعة الوصول الى ذلك، لاسباب تنظيمية وبشرية بالدرجة الاولى. ومن الجانب الاوربي يبدو أن ترسبات أفكار الفترة الاستعمارية وما قبلها ظلت لها انعكاسات سلبية قوية على التطور الفكري المنشود تجاه حضارة العرب، ذلك ان ثمة جهلا بواقع الحضارة العربية من حيث دورها ومساهمتها في التيار الحضاري للانسانية جمعاء وبالرغبة القوية لدى أهلها في الرقي بعد خول طويل، فبالرغم من الجهود الكبيرة التي قام بها رجال الاستشراق في مختلف الميادين المتعلقة بالحضارة العربية والتعريف بمنجزاتها وبخصائصها - السلي منها والإيجابية - فإن قضية التفهم العام، التي كان من المفروض أن يتسع مداها. لدى الأمم الغربية ظلت يغلب عليها طابع تنطية مسحة من الانحصار والحدودية لدى طبقة معينة من الدارسين التخصصيين بالدرجة الاولى بحيث لا تكاد تتجاوزهم الى سواهم الا في نطاق ضيق هو أقل من المطلوب بكثير⁽¹⁾.

ان الاحتكاك الحضاري بين العرب والاوربيين لم ينقطع في الماضي ولا في الحاضر، فتوارد فتوارد الخواطر لدى المفكرين والكتاب اللامعين في أوروبا والبلاد العربية ظل له وجوده القوي باستمرار، ومن الأمثلة البارزة في هذا الميدان ان ما يذهب اليه المعري (أبو العلاء) في رسالة الغفران نجده يتكرر له مثيل بعد ذلك لدى دانتي (الليغيري) في الكوميديا الالهية، وما يشته ابن ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن) من مبادئ، أساسية لعلم الاجتماع، يوجد له صدى قوي يشبه الاقتباس لدى أوغست كونت بعد ذلك. وفي القرن السادس عشر أخذ الحسن بن محمد الوزان⁽¹⁾ الى بلاط البابا في روما فنقل الى الاوربيين ولاول مرة معلومات واسعة عن افريقيا جنوب الصحراء، التي كان العرب قد عرفوها لمدة طويلة قبل ذلك، ومن المعروف أيضا ان فاسكو دي غاما كان دليله في الوصول الى الهند الملاح العربي احمد بن ماجد. بل وتتجاوز ظاهرة الاحتكاك المستمرة بين الحضارتين العربية والاوربية النطاق الفردي الى حد كبير، ومن الوقائع البارزة في هذا النطاق أن هناك ثلاثة محاور أساسية كانت قد انتقلت عن طريقها مختلف التأثيرات الحضارية العربية الى أوروبا بشكل مباشر، وهي الاندلس في اسبانيا وجزيرة صقلية في ايطاليا ومضائق الدردنيل والبوسفور عن طريق القسطنطينية. فلقد تعايش العرب والاوربيون في هذه المناطق الثلاث واتصلوا ببعضهم في صورة من الاحتكاك الطويل المدى، ومعروف أن روجر الثاني أمير صقلية كان يسلك في بلاطه سلوكا يشبه الى حد كبير سلوك أمير غانا من حيث احتفاظه في بلاطه بجنّاء وعلماء مسلمين كان يعتقد انهم على درجة عالية من التحضر والعلم ربما تفوق ما كان يتوفر عليه مواطنوه⁽²⁾. ومعلوم ان الادريسي الرحالة الجغرافي العربي الشهير كان قد وضع خريطته العالمية لملك صقلية بالذات، وفي هذا السياق أيضا يشير عدد من المؤرخين بالخصوص الى أن البابا سلفستر الثاني الذي قبل اعتلائه لمنصب البابوية من بين أولئك الذين قد تثقفوا على أيدي العلماء العرب في الاندلس.

لا شك ان الطريق التجاري الى الشرق كان له دوره القوي أيضا في الاحتكاك الاوربي حضاريا مع العرب خلال العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة في أوروبا، وبالتالي فان ازدهار الجمهوريات الايطالية في تلك الفترة كانت من ورائه أسباب كثيرة تعود في جزء

عشر الميلادي يكون قد اكتشف مسيرة الدورة الدموية في جسم الانسان قبل أن يعرف تفاصيلها الفرنسي المنسوب اليه في أوروبا مثل هذا الاكتشاف، وهو ميشال سرفي MICHEL SERVET المتوفى سنة ١٥٤٧ للميلاد، وما يستدل به بعض الباحثين في ذهابهم الى أن سرفي يكون قد أخذ عن ابن النفيس، هو أن أعمال هذا الاخير في خصوص هذا الموضوع قد نشرت مترجمة الى اللاتينية بمدينة فينيسيا في سنة ١٥٤٧ بالذات^(٢).

اما اطلاق اللوغاريتم والجبر في أوروبا على هذين المادتين انطلاقا من معرفة مؤلفات الخوارزمي وجابر بن حيان مترجمة الى اللاتينية فهو قول شائع ولعله يعطي الدليل على دور الترجمة الهام في خدمة العلم. واذا كانت الأمثلة كثيرة عن أهمية دور الترجمة عن العربية في العصر الوسيط، فهناك في العالم العربي الآن حركة ترجمة مماثلة نشيطة، وهي تتلقى كل التشجيع سواء لدى الاوساط العلمية أو مراكز البحوث، كما أن جماعات الطلاب والراغبين في التخصص والمعرفة يرتادون الجامعات الاوربية باستمرار وكل ذلك يعكس مسيرة أخرى في الترابط والاتصال الحضاري الذي هو من طبيعة الانسان كما أنه يشير الى الرغبة القوية لدى العرب في الخروج من فترة التخلف التي فرضتها عليهم الظروف^(١)، وهناك مثل عربي قديم (لا بد من نعاء وان طال السفر)، فاذا كان لهذا المثل أن يجسم المسيرة العملية للعرب الآن نحو اقتصار الزمن، فان الامل المرجو من هذا المنقذ وغيره، هو العمل على تقريب الشقة والاعتراف بدور الجميع في حضارة البشر والبحث عن الوسائل الاكثر جدوى وفاعلية لترقية الانسان.

II الحضارة العربية عالمنا المعاصر

١ - العامل البشري:

ان الحضارة العربية في الوقت الحاضر تمر بفترة انتقالية واضحة السمات، فبعد فترة الاخطاط الطويلة وما أعقبها من استعمار مباشر دخل العرب في مرحلة النهضة الحديثة منذ القرن التاسع عشر، ثم حققوا الاستقلال السياسي، وهم يجتهدون الآن للتوسع في الدخول في مرحلة النهضة الحضارية بمعناها الشامل وتجاههم عقبات عديدة ليست مستحيلة الاجتياز والتغلب عليها اذا توفقوا في اختيار أحسن الطرق المؤدية الى الاهداف المنشودة.

لقد كان ولا يزال النقص الكبير في خصوص الملاءمة المرغوب توفرها بين اليد العاملة ووسائل الانتاج الحديثة من أقوى المشاكل التي اعترضت طريق العرب وبلدان العالم الثالث عموماً، ذلك أنه من السهل تشييد البنايات الهيكلية في وقت قريب ولكنه من الصعب ايجاد العامل الذي تتوفر فيه شروط القابلية للتعامل مع وضع جديد عليه ومعقد لآلة ميكانيكية حديثة وبالسعة التي تتطلبها ظروف العصر الذي نعيشه. لقد بدأت كل الدول العربية تبشر مسؤوليات الاستقلال وفق الأساليب العصرية المتوفرة في الغرب، وهذا في الوقت الذي كانت فيه الغالبية الكبرى من السكان لم تنهياً بعد لمثل هذه المواجهات. إن الأمور في عصرنا تتطور بسرعة لم تعرفها البشرية من قبل. ففي حين كان اهتمام العرب بعد الاستقلال لا يزال متصلباً على اللحاق بالأمم الراقية في ميدان الصناعات الميكانيكية، نجد دخول

كبير منها الى الاحتكاك بالعرب والتجارة معهم، ولعله قد لحق هذه الجمهوريات نوع من الفتور الاقتصادي بصورة خاصة حينما انتقل مجرى هذا الطريق الى الغرب بعد وصول الاوربيين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح. ان تبادل الجمهوريات الايطالية والموانئ الأوربية على البحر الابيض المتوسط مع موانئ بلدان المغرب العربي لم ينقطع حتى في أحلك الظروف. ومجدثنا بصورة خاصة الشاعر الاسباني المعروف (سرفاتيس) أثناء اقامته في الجزائر كيف كان توارد السفن والتجار الاوربيين لا ينقطع بالرغم من حركة القرصنة المتبادلة بين الطرفين في البحر الابيض المتوسط كله آنذاك، وفي القسم الموالي للقرتين الاوربية والافريقية من المحيط الاطلسي أيضاً. ويذكر في هذا السياق أنه خلال الحروب الصليبية التي استمرت عدة قرون، قد احتك الاوربيون بالحضارة العربية لمدة طويلة واتصلوا بها بشكل مباشر، وكان من نتائج ذلك الاحتكاك الطويل تأثير مباشر على أخلاق وعادات الصليبيين نقلوا جزءاً كبيراً منه الى أوروبا^(١).

لقد تنقل الرحالة ابن جبير وهو في طريقه الى الحج على متن باخرة شراعية تعود ملكيتها للنصارى الاسبان، وكان يرافقه حجاج مغاربة وأندلسيون، فأوصلتهم الباخرة بعد جهد جهيد الى ساحل فلسطين وقد سجل لنا ابن جبير أثناء مروره بصقلية مشاهد مؤثرة عن تعايش العرب تحت حكم النصارى في تلك الجزيرة، ولقد أنشأ ملك صقلية فريديريك فون هوهنستوفن VON HOCHANSTOUFEN. FREDRICK مجمعا نشيطاً للترجمة ببلاطه في (باليرمو)، وكان قد سبقه الى ذلك ملك اسبانيا الفونسو بتأسيسه لمجلس الترجمة في بلاطه سنة ١٢٥٤ م. لقد عرف عن هذين المجلسين انها كانا يترجمان عن العربية واللاتينية، وهما يشبهان في عملهما الى حد بعيد بيت الحكمة الذي كان قد أنشأه الخليفة المأمون سنة ٨٣٢ م في بغداد، وكان قد عهد برئاسته إلى حنين بن اسحاق النسطوري من الحيرة وما نشأ عن ازدهار حركة الترجمة في أوروبا العصر الوسيط مثلاً أن الأعمال الفكرية لأحد أشهر الفلاسفة في الغرب خلال القرن الثالث عشر وهو توما الاكويني St. THOMAS AOUINAS احتوت ما لا يقل عن ٢٥١ اقتباساً حرفياً عن ابن سينا وحده^(٢)، وبلغ الولوج بمعرفة اللغة العربية وما تحتوي عليه من المعارف العلمية والفنية في أسبانيا على الخصوص ما قد يعطينا صورة عنه النص التالي الذي حرره أحد الكتاب الاسبان عن شعوره تجاه بني قومه آنذاك في هذا الخصوص:

« ان ارباب الفطنة والتذوق سحرم رنين الادب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، وانهم ليعجبون بشعر العرب ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها بل لاقتباس الاسلوب العربي الفصيح... ان الجيل الناشئ من المسيحيين الاذكياء لا يحسنون أدباً أو لغة غير الادب العربي، وانهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأعلى الامثان^(١) ».

هناك من يذهب من الباحثين الى أن الطب كان (مادة عربية) بالنسبة لاوروبا العصر الوسيط وحتى القرن السابع عشر، حيث ظل كتاب القانون لابن سينا بشكل خاص يحظى بمركز الصدارة في الجامعات الاوربية، ومن هذا القبيل أيضاً ما ثبت لدى هؤلاء الباحثين من ان ابن النفيس الدمشقي المتوفى في نهاية القرن الثالث

فان هذه الثقافة ذاتها انما تشمل بدورها على عناصر منت ثقافات سبقتها، منها ثقافتنا العربية، فهي حصيله ثقافات من اقتبسها الغرب وأضاف إليها وأغناها وأخرجها في صورتها الحاضرة.

لقد ساهمت الصحافة ووسائل الاعلام في تطوير اللغة العربية وفق أسلوب عملي خاص، وذلك من حيث التبسيط الذي تتطلبه السرعة والتداول على مستوى جماهيري واسع، وكذلك من حيث انتحال المصطلحات التي أصبحت متداولة على المستوى العالمي مثل (الدبلوماسية والتكنيكية) وغيرها دون أن تبحث لها عن مقابل عربي، وبالرغم من أن مثل هذا الاسلوب قد يهمل قواعد الاشتقاق المرنة جدا في اللغة العربية والذي أعطى الكثير في صقل المصطلحات وكذلك بعض الاشكال الصرفية في بعض الحالات فإنه ساهم بفعالية بفعالية شديدة في خصوص تضييق الحواجز بين لغة الشارع اليومية وبين اللغة العربية الفصحى فأصبحت لغة النخبة، ان صح هذا التعبير، قريبة جداً من لغة الشارع والمنزل، وأكثر من ذلك فان وزارات الثقافة في الحكومات العربية راحت وهي تعمل لغرض خدمة الثقافة الجماهيرية وتوسع ميادينها تتوسع في التعريف بمعنى الثقافة الى درجة أن أنواعاً من التسلية والفلكلوريات قد أدرجت في الثقافة وأصبحت في مفهوم هذه الوزارات جزءاً هاماً منها.

وبناء على ما سبق فانه اذا كان للملاحظ أن يتابع وجهة التطور الواسع في الثقافة العربية المعاصرة فلعله سيجد أن اتجاهها نحو الجماهير هو الصفة البارزة اليوم، ويساعد على هذا ذلك النقص المتوالي دون انقطاع في عدد الأميين كما أن هذه الثقافة تتطور بالانفتاح على العالم الخارجي، وبالدرجة الاولى الغرب، بشكل قوي جدا.

٣ - تنظيم العمل:

يذهب برتولد بريخت إلى (أننا نستطيع وصف عالم اليوم لمعاصرنا فقط اذا كنا نفترضه قادراً على التغيير)، وهناك في العالم العربي اليوم رغبة أكيدة في التغيير تجاه التطور والمعاصرة، كما أن هناك ثروات طائلة يستطيع الإنسان العربي استخدامها للوصول الى التطور والمعاصرة وهناك دافع قوي في الخصوصيات الحضارية للعرب والتي أقتنعهم بالاصالة الحضارية لديهم، وتحفزهم نحو التطور المنشود. ويبدو أن الصعوبة هنا في العجز حتى الآن دون التطور المنشود بجميع أبعاده لدى العرب تتمثل، من جملة ما تتمثل فيه مسألة تنظير العمل بالدرجة الاولى واعطائه الاهمية اللازمة، في التركيز والتخطيط، لان الشعوب التي تمكنت من الإبداع في الحضارة الانسانية المعاصرة، قد توصلت الى ذلك عن طريق تنظيم العمل فالعمل المنظم هو الثروة الاولى والبراعة في استخدامه لدى الأمم هي الكفيلة بالنجاح قبل أي شيء آخر. ان قضية تنظيم العمل تتعلق بنوعية الاطارات المشرفة على التسيير، وهذه المجموعات لا تزال في الوطن العربي أقل كفاءة، على ما يبدو، من حيث التحكم في تنظيم العمل واستخدام القوى البشرية المتوفرة بالشكل المطلوب فهي تقتصر حتى الآن على تقليد أنماط التسيير الموجودة في الغرب، ولم تتجاوز ذلك الى اختراع الاساليب التي قد تتناسب أكثر وظروف مجتمعها العربي الخاصة به.

ان تنظيم العمل مسألة لها ارتباط قوي بعامل الوقت والبيئة في آن واحد، ولذلك فهي حاجة ضرورية الى التأقلم المرتبط بالاهداف

الامم المتصنعة في عصر الالكترونيات يتم بسرعة عجيبة، ويبقى توفر النوعية من العنصر البشري في كلتا الحالتين شرطاً ضرورياً وقاعدة أساسية وبدونها لا يمكن الوصول الى الأهداف مهما توقرت الوسائل المادية. ولقد تغيرت الأمور عن ذي قبل نتيجة للمجهودات الجبارة التي بذلت في هذا السبيل حتى الآن، ولكن الأمر في هذه الناحية لا يزال في حاجة الى تطور أكثر بكل تأكيد، ولعله من أعوص العقبات التي لا تزال تحول دون تحقيق التنمية الشاملة بالقدر الكافي وبالسرعة التي يتوق إليها العرب ويسعون جادين لبلوغها، واذا كانت الأمية في الماضي القريب كثيراً ما حالت دون التطور البشري نحو هذا الاتجاه، فان ما انتجته المدارس التي بلغ الإنفاق عليها بما قد يفوق معدل ربح الانتاج القومي العربي في السنوات التي أعقبت الإستقلال قد أدى الى تحطي عقبة الامية والدخول مباشرة في مرحلة المجابهة مع مشاكل التكوين.

٢ - الثقافة:

ان الصورة المستحبة للثقافة العربية في الوقت الراهن انها مفتوحة على الجديد الى أقصى الحدود، مع الحرص على المحافظة على الموروث، غير أن مسيرة العرب منذ بدايات النهضة نحو هذه الارضية قد أدت الى ظهور بعض التناقض وتعدد الصور غير المنسجمة أحياناً بين المثقفين العرب، ففي الوقت الذي يحرص فيه الكثيرون على الأخذ بالجديد مع عدم التفريط بالتراث، نجد أن هناك شريحتين تتناقضان بحيث لا تريد احدهما أن تلتقي مع الاخرى فهناك من تعلم في الغرب وأخذ وجهته الثقافية بعمق عربي قد يرفض فيه النظر لمسألة التراث التي تجاوزتها الاحداث ولم يعد فيها ما يفيد في نظره، وهناك شريحة أخرى «سلفية» المفهوم لا ترى في سنن التطور أكثر من الابتعاد عن الاصاله أو قد تنظر في كل جديد بعين الشك والريبة، وتذهب إلى أن قوالب الماضي قد احتوت كل شيء ولذلك أوجدت لدى العرب حضارة قوية وان العرب استطاعوا بواسطتها الوصول الى ذلك. ورغم أن هذه الشريحة من المثقفين السلفيين قد أصبحت ضئيلة العدد جداً الآن، بالقياس الى القرن الماضي وبداية القرن العشرين وكذلك الامر في خصوص الشريحة الاخرى المناقضة لها، فان أطروحات الطرفين معا كانت ولا تزال من سمات عصر النهضة، ولذلك فهي علامة من علامات الصحة التي أدت الى الاقتناع العام لدى الاكثريه الساحقة من مثقفي العرب في وجوب فهم الأصالة وانها تتمثل في الأخذ بكل جديد مع المحافظة على التراث والاعتزاز به^(١).

تستمد الثقافة العربية في الوقت الحاضر روافد كثيرة من الثقافة الغربية وتتكامل معها في شكل من الازدواجية يكاد يتغلب فيه الطابع الغربي أحياناً، وهكذا نجد أن التعليم العام ينسجم انسجاماً كبيراً مع النظام الغربي وبرامجه ومحتوياته، كما أن القوالب الشعرية العربية أصبحت تزاحمها في المدة الاخيرة قوالب جديدة لها جذورها في الغرب، وازدهرت القصة كذلك بصورة ابتعدت فيها عن أسلوب ألف ليلة وليلة ومقامات الهذلي لتعني بمشاكل الإنسان وتحليل نفسية الفرد، وأصبح المسرح يعكس واقع القصة الى حد كبير كما أن ضروباً من الرسم والنحت قد أخذت مكائنتها في الحركة الثقافية العربية المعاصرة بشكل أساسي. واذا كنا نأخذ من الثقافة الغربية

ونوعيتها، ويبدو أن هذه المسألة لا تزال في حاجة الى عناية قوية من طرف المفكرين والمسيّرين العرب حتى تعرف أبعادها بدقة، وحينئذ يمكن إيجاد الصيغ والمقاييس المناسبة التي تخدم قضايا الانسجام والانتاج بصورة أكثر جدوى وفعالية.

٤ - المجتمع:

يمر المجتمع العربي والاسلامي في هذه الظروف بفترة انتقالية شديدة التعقيد فهناك ظاهرة نزوح شديدة نحو المدن تشبه الى حدّ ما تلك الوضعية الماثلة التي رأتها بعض المدن الاوربية في إنجلترا وألمانيا في ابان الثورة الصناعية، كما أن اقبال سكان الريف على الأخذ بزمام التطور وتطلعهم السديد الى تدريس أبنائهم وفق الطريقة الحديثة قد أدى في غضون سنوات قليلة الى تقارب كبير في نمط الحياة بين الريف والمدينة، وان العادات والتقاليد التي كانت تمتاز بخصوصية شديدة أصبحت اليوم تمزج مع بعض التقاليد والعادات المستوردة من الغرب بطرق متنوعة، وهكذا تجاوز الامر مثلاً، وخاصة لدى مجموعات كبيرة من الشباب وبعض الاوساط في البلاد العربية، مجرد التوقف الرسمي عن العمل في بداية السنة الميلادية الى الاحتفال الفردي والعائلي بها أيضاً، كما أن الألبسة العصرية على النمط الاوربي قد انتشرت في الريف بدرجة ملحوظة، وأخذت طريقها بسهولة لتحتل مكان الألبسة التقليدية العربية باتساع ملحوظ، وخاصة لدى الشباب. ولا يقتصر الامر هنا على الظواهر والشكليات، بل يتجاوزه في كثير من الاحيان الى عمق الاشياء والمفاهيم، ولعله من أقرب الامثلة على ذلك أن التصور العام للحياة تطور لدى الناس حتى في الريف كما أن التنظيمات المهنية للفلاحين في كل البلاد العربية كان لها دورها الهام في احداث نوع من المفهوم الطبقي والمهني لدى الأكثرية من جماهير المزارعين التي لا تزال تمثل النسبة الكبيرة من السكان، وباختصار فان هناك فروقا شاسعة بين الماضي والحاضر كما تبدو في تفكير الناس وتصوراتهم اليوم، ويبدو أنها لا تزال في اتساع مستمر، وهذا نتيجة للتطور العام الذي مر به المجتمع العربي منذ بداية العشرينيات الاخيرة على الخصوص.

٥ - الاقتصاد:

كثيرا ما يشاع عن العرب أنهم متخمون بالغنى وهذا صحيح من ناحية توفرّ الموارد الطبيعية وخاصة النفط لدى كثير من البلدان العربية ولكن النقص الحاصل في البنية والكفاءة التي تستخدم تلك الموارد ليكون مردودها في الازدهار الاقتصادي مفيدا وشاملا، جعل الثروة المتأتية عن الموارد الطبيعية تكاد لا تفيد الا بشكل ظاهري وعابر في كثير من الحالات. ان جميع البلدان العربية حين ظهور الموارد النفطية كانت في بداية مرحلة الانتقال من الفترة الزراعية - الرعوية الى مرحلة التصنيع، وحينها لم تتوفر لديها مصادر التمويل كانت محاولاتها في هذا الميدان جدّ محدودة لانها كانت محصورة بطبيعتها بضيق المصادر المالية أما بعد توفر المصادر المالية نسبياً فان البلدان العربية لم تجد المساعدة من الدول المتصنعة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ بل تجاوزه الى التخطيط الواضح لدى الغرب في جلب الأموال العربية اليه بمختلف الأساليب ومنعها من التمرکز والاستقرار في البلدان العربية، وبالطبع فإن البلدان العربية لم يكن لديها من الإمكانيات ما يمكنها من استيعاب تلك الأموال العربية كلها في

ظروف تجعلها تنافس الظروف والامكانيات المتوفرة في الغرب لاستيعاب تلك الاموال أو جزء كبير منها على الأقل. واننا في الوقت الذي ربما نكاد نشرف على انتهاء فترة الترتول فيه، نجد أن التنمية الشاملة بالشكل الذي يطمح إليه العرب لا تزال دون المستوى المطلوب.

لقد نتج عن محاولات التصنيع شيء من الفوضى جعلت الزراعة تكفّ عن الايذاء بالحاجات المحلية في معظم البلدان العربية كما كان الشأن من قبل، وهذا في الوقت الذي ما زالت فيه الصناعة تعتمد على الخارج بشكل كبير، وقد نتج عن ذلك ظهور كثير من المشاكل الاجتماعية كان لها أثرها الكبير حتى على التطور الديمقراطي المنشود^(١)، ورغم هذا كله فان من يقارن الوضع في كل بلد عربي بمثيله قبل فترة الاستقلال يجد أن الاشواط التي قطعت كبيرة جداً، واذا كان لكلمة «البلدان السائرة في طريق النمو» معناها الذي ربما ينطبق على كثير من بلدان العالم الثالث وليس على كلها، فان البلدان العربية يمكن أن تصنّف ضمن ذلك الجزء من بلدان العالم الثالث الذي ينطبق عليه هذا المصطلح التقني والسياسي عن جدارة واستحقاق.

٦ - التكامل الحضاري:

تمرّ الحضارة العربية، في الوقت الراهن. بمرحلة انتقالية ذات أبعاد داخلية وخارجية: أبعاد داخلية تتصل بأوضاع البلدان العربية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأبعاد خارجية تتمثل بصلة هذه الحضارة بالحضارات الاخرى ولا سيما الحضارة الاوربية.

وتتميز هذه المرحلة بأنها شديدة التعقيد لأنها تمسّ جوانب الحياة العربية المادية والمعنوية من جهة وتواجه، في الوقت ذاته، التحولات السريعة التي تطرأ على الحضارة الغربية ولا سيما في ميدان العلوم والتكنولوجيا من جهة أخرى.

اننا على يقين من أن العزلة وهم والانطواء على النفس خداع للنفس، لان التواصل الحضاري قائم ومستمر... كذلك كان في السابق وهو اليوم أشد الحاحا الحاحا بسبب ما لحق وسائط الاتصال ووسائل الاعلام من تطور هائل اختصر الابعاد وقرب المسافات^(٢).

ان التعاون لم يعد يقتصر على تبادل المواد والسلع والافكار والنظريات والآداب والفنون، بل هو في هذا العصر موقف مشترك لمواجهة تحديات مشتركة، ان أمورا مهمة تعرض لكل من الجانبين أو لاحدهما ولا يمكن أن يتصدى لها جانب بمفرده بل ينبغي أن يواجهها بجهد مشترك وليكن مثالا على ذلك مشكلة الامن الغذائي أو تلوث البيئة أو البطالة أو مشكلات الشباب. انها من تحديات هذا العصر الكثيرة التي تواجه أوربا والوطن العربي مجدّة وقسوة بهذه الصورة أو تلك ولا بد من أجل معالجتها من تعاون مشترك يتم السير فيه بالسرعة الواجبة والنجاعة والجامعة اللازمة.

وان أفضل أشكال التعاون التعاون هو التعاون الثقافي الذي يساعد على تكوين فهم صحيح للمشكلات العارضة وطرق معالجتها ويعكس آثاره على جميع نشاطات الانسان الاخرى: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ولعل هذا الحوار الثقافي الذي نضع لبنته الاولي اليوم يكون الفاتحة لحوار أوسع يشمل جوانب الحياة كافة ويبدش عهدا جديدا من التعاون الصادق والتضامن الصحيح بين الحضارتين العربية والاوربية.

(١) عاش RUDYARD KIPLING بين (١٨٦٥ و ١٨٣٦) وقد حصل على جائزة نوبل في الادب لسنة ١٩٠٧.

(١) يراجع طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد ١٩٥٧.

(٢) راجع طوقان، العلوم عند العرب، بيروت ١٩٥٥.

(1) CF. ARNOLD TOYNBEE, A STUDY OF HISTORY LONDON 1966..

(١) قارن د. غسان فيناس «فلسفة الوجود عند ابن سينا» مجلة قضايا عربية، بيروت ١٩٨٢ عدد ٦ - ص ٧٩ فما بعد.

(٢) يراجع آدم ميتز، تاريخ الدولة العربية (بالخصوص).

(1) CF. MAURICE DELAFOSSE, HAUT SENEGAL - NIGER, PARIS 1912

(٢) يراجع - ألبرت حوراني - الفكر العربي في عصر النهضة، بيروت ١٩٧٧،

(١) بيروت ١٩٦٦

(2) SIEGFRIED PAUSWANG, «CONFRONTATION WITH THE OF THIRD WORLD: A CHALLENGE TO EUROPEAN P 67. F. CULTURE», IN CULTURAL SELF COMPREHENSION NATIONS, , BASEL 1978,

(1) ET PERSPECTIVE, CF. ANDRE RAYMOND. «LE CULTUREL EURO -ARABEP HISTOIRE PP. 29 -43. IN JACQUES BOURRINET, ED., LE DIALOGUE EURO -ARABE, PARIS 1979,

(١) يعرف في أوروبا باسم (جون ليون الافريقي)

(٢) حول ملك غانا والخبراء العرب لديه يراجع البكري (أبو عبد الله)، طبعة الجزائر (تحقيق دي سلان).

(١) راجع هونكه - شمس الله تسطع على الغرب، الجزائر ١٩٧٣.

(2) R.W.J. AUSTIN ET AL. ; «WHAT WE OWE TO THE ARABS», IN FF. THE ARAB WORLD, (THE TWO CONTINENTS PUBLISHING GROUP), P. 139

(١) طارق عبد الفاح الفتاح، عن دوزي، «بين الاسلام والفكر الغربي» المجلة العربية، الرياض عدد ٥٨ سبتمبر ١٩٨٢، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) AUSTIN ET AL., OP. CIT, P. 150..

(١) يراجع قسطنطين زريق - قتي معركة الحضارة - بيروت (طبعة ثالثة) ١٩٦٤ ص ٣٨٩ فما بعد.

(١) راجع د. زكي نجيب محمود «أضداد تتزاحم»، الاهرام في ١٩٨٣/٢/٦ والاعداد التالية.

(١) راجع: الدكتور محمد فاضل الجهالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الاسلامي تونس ١٩٧٨ - (طبعة ثانية ٣٢٣ صفحة).

(٢) المرجع ذاته صفحات ٢٦ و ٥٧ فما بعد.

بيروت

دار الآداب

الدكتور حسين جُمعة

مضايًا الإبداع الفني